مقتطفات من كتاب

الإنسان الثاني

عباس العقاد

حدوتة كتاب

إليك لأنك تعرف لماذا!!!؟

كبسولة خير للبرمجيات

مصطفى علي سيد

(أبو مهاب)

https://cap-khir.com

sedratalmontha@gmail.com

عصرُ المَرأة

وقفت على آراء في المرأة للفيلسوف الألماني آرثر شوبنهور، فأعجبني حذق الرجل وجرأته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها في أوروبا خلوًا من التهذيب وسلامة الذوق. وإن كنت أراه قد غلا في مذهبه إلى حدٍّ ربما كان الدافع به إليه غُلُوُّ المدنية العصرية في نظرها إلى المرأة ورعايتها إياها.

فإنا لفي عصر خليق بأن ندعوه عصر المرأة، فإنك لا ترى إلا أثرًا من آثارها حيث ذهبت، وقليلًا ما تجد عقلًا لا يشتغل بأمرها أو قلبًا لا يشتغل بها، حتى لقد بلغ بهذا العصر الظريف أن يُرَغِّبَ الناس بصورها ورسومها في أوراق التبغ وعلب الثقاب وحلوى الأطفال وإعلانات المتاجر والسلع، وحتى لقد أصبحوا ينصبونها أُحبولة يتصيَّدون بها الناس إلى حفلات البر ومجالس الإحسان.

ففيم ذلك كله يا ترى؟ ألعله بلغ من صلاح النفوس البشرية ورفقها بالضعفاء في عهدنا هذا ما نرى بعض علائمه في معاملة النساء المستضعَفات، والتلطف مع هذا الجنس اللطيف؟ لو كان ذلك لقلنا قد تحقَّق الحكم الذي رآه الفلاسفة في دياجي القرون الأولى. ولكننا ننظر إلى سابق العهود، ونستعرضها واحدًا واحدًا فلا يعرض لنا عهد كان أقسى على الضعفاء وألين للأقوياء من هذا العهد الذي نحن فيه، والنساء أول من تصيبهن جرية الضعف، إذا هن لم يعرفن موضع القوة منهن بعرفانهن موضع الضعف من نفوس الرجال.

إنما نحن في عصر شهوة، لا شأن له في صلاح أو نخوة، والنفوس باقية على ما جُبِلَت عليه وإن لم يكن قد تدلَّى بها الحرص والضنك. ولا شيء أصلحه رقي العالم — اللهم إلا الحديد والمعادن فإنها تُصاغ اليوم بواخر وقواطر، ومدافع وقذائف أجود صنعًا وأسطع وميضًا من آلات الزمان القديم.

قال ماني حكيم الهند: «ينبغي أن يوضع النساء في الليل والنهار تحت كنف أوليائهن، طائعات كل الطاعة لهم، معولات كل التعويل عليهم.» الهنود يقولون ما معناه: «لا بد للمرأة من سيد في كل أدوار حياتها؛ فسيد البنت أبوها، والزوجة قرينها، والأم ولدها.» وكذلك كانت حالها في الصين. وكان الرومانيون في الغرب يُجِيزُون للرجل التصرف في حياة امرأته كما يتصرف في دوابِّه وعقاره. ولا تتزوج الفتاة عندهم إلا إذا شاء أبوها. ولن يسقط حق الأب في مباشرة قران ابنته ولو كان مجنونًا.

والآن نرانا نحترم المرأة. فهل تهذبت الطباع وتغيرت السجايا؟

ما عهدنا في النفوس البشرية هذا الكرم. أقول ما عهدنا الناس يصدَعون بالحق لأنه حق أو يدينون بالإنصاف لصوابه؛ فالحرية الشخصية في بعض البلاد حق لا يمتري فيه اثنان. سلَّم به الملوك، لا اقتناعًا بمقدمات الفلاسفة وبراهينهم، بل رهبة من سيوف الثوَّار ونيرانهم. وهذا الحق الذي لا يجرُؤ على مسِّه حاكم ولا ملك في البلاد الحرة، يُداس جهارًا في غيرها من البلاد التي لم تبرهن على صدقه بالحديد والنار. وضمانة حقوق العمال حَقٌّ رَضِيَهُ أصحاب الأموال، ولولا أن العمال تضافروا على المطالبة به وألَّبوا لتأييده لما رضوه أبدًا

هذا الضعف الذي يلازم المرأة أبدًا قد جعلها قليلة الركون إلى نفسها عظيمة التعويل على غيرها، وصغرها في نظر نفسها، فصارت لا ترى لها قدرًا إلا في نظر الناس إليها. وإنها لتتعلق لهذا السبب بمن يعرض عنها ولا يحفل بها لأنها تحسب إعراضه نقصًا فيها على كل حال. وكثيرًا ما تعالج استمالة ذلك المُعرض عنها لتُزيل ما علق بخاطرها من ريب في قوة جمالها ونفوذ سلطانها، والويل لمن تعلَم أن لها شأنًا كبيرًا عنده؛ فإن في الإعجاب بها كل غايتها من الرجل. فإذا وثقت من إدراكها عنده لم يبقَ لها شأن معه. وفرغت منه لتنظر تأثير جمالها في سواه. ولعل هذا الذي يجعل المرأة أحيانًا تستصغر نفسها مع الزوج الفاسق وتستصغر الزوج الصالح معها.

قال شوبنهور: «المرأة تؤدي ما فُرِضَ عليها في الحياة. لا بما تنجز من الأعمال بل بما تقاسي من الأوجاع؛ فعليها مكابدة آلام الحمل والوضع والسهر على الطفل وخدمة الرجل الذي ينبغي أن تكون له رفيقًا صابرًا مؤنسًا.»

وقال: «لقد ركب في غريزة النساء ما يجعلهن صالحات لحضانة الإنسان طفلًا، ويَكُنَّ به معلمات صباه ورفيقات أيامه الأولى؛ ذلك لأنهن كالصغار، صبيانيات الأميال، خفيفات الأحلام، قصيرات النظر، وأنهن لا يفتأن لاهيات، فلا تزال المرأة طفلة كبيرة الجسم في كل أدوار حياتها.»

وما ظلمهن شوبنهور؛ فهن — كما قال — لا يخرجن من طور الطفولة أبدًا، ولهن في كل دور من أدوار الحياة ألاعيب وفلسفة تناسب ذلك الدور؛ فهن أبدًا صغيرات وإن شبَّت بأجسامهن الأعوام.

في المرأة من أخلاق الطفل غَيْرتُه المضحكة ونزقه السريع واستغراقه في الحاضر الذي بين يديه، وقصور نظره على الظواهر والقشور، ومرحه وغرارته ونفوره مما يهم ويصلح، ومحاكاته كل ما يراه، وتعويله في كافة أموره وأمياله على سواه، وتقلبه وكذبه ورياؤه وولعه باستطلاع المضمَرات والأسرار، وجشعه وطمعه وموجدته، وافتتانه بالثناء والإطراء.

وهناك رجل من زمرة أُسَمِّيهَا قرود النساء، لا هو بالغني الوسيم ولا بالغني الكريم. ولكنه ذو حظوة عند المرأة. ذلك رجل سبر طباعها، وخبر تقلُّبات أهوائها. فعرف ما يضحكها ويعجبها، وما يسرها ويحببها، فيتلاعب بعواطفها، يأتيها من جانب غرورها اليوم، ومن جانب غيرتها غدًا، ومن جانب مشتهياتها وهواجسها مرة أخرى، فتستملح عشرته، وتستطيب حديثه. وما أقرب ما بين الحب والاستحسان في قلوب النساء.

وإنا لنسمع عن نفور زوجات العلماء والعقلاء من أزواجهن وتبرُّمهن بعشرتهم. وما لذلك من سبب إلا أنهم لا يتنزلون إلى إرضاء صغائر المرأة، ولا يحسنون ما يحسنه هؤلاء القرود.

فليس أحظى عند المرأة من هؤلاء الثلاثة: فتى ذو جمال، أو صاحب مال ونوال، أو خلب نساء ختال. تتخيرهم وتقدمهم على سواهم، وما هم بأطيب الأزواج ولا بأحسن الآباء ولا بخير الرجال.

وما شر الثلاثة أُمَّ عمرو   بصاحبك الذي لا تصبحينا

ولقد هال شوبنهور كثرة فرائس العزوبة في أوروبا فعمد إلى وصفة شرقية، وقال بوجوب الاقتداء بأمم الشرق في إباحة تعدد الزوجات.

ونحن ننقل كلمته في هذا الصدد، حتى يفقه القُرَّاء ماذا هوَّن على حكيم غربي أن ينصح قومه بالرجوع إلى ما نعالج التخلص منه في شرقنا ونعدُّه منكرًا تجب إزالته. قال:

> يقضي الزواج في البلاد التي تقصر الرجل على زوج واحدة تنصيف حقوق الرجل وتضعيف واجباته. وإذا كان القانون يمنح المرأة كل ما يسمح به للرجل فقد كان حقًّا عليه أن يمنحها عقلًا كعقله واستعدادًا كاستعداده. وإنه بقدر ما تزيد هذه الحقوق والمزايا التي خصت الشرائع بها المرأة عن مقدار ما خصتها به الطبيعة، نرى هنالك نقصًا بَيِّنًا في عدد النساء اللائي ينتفعن فعلًا بتلك الحقوق والمزايا، وعلى ذلك فلا نتيجة لإثبات هذا النص في شرائعنا إلا أنها حَرَمَتْ فريقًا من النساء حقوقهن الطبيعية بقدر إمتاعها الفريق الآخر منهن بحقوق فوق ما يجب لهن ويناسب طبيعتهن.
>
> فإن هذه الميزة المجافية للوضع الطبيعي، التي نالتها المرأة بحكم سُنَّة الوحدة في الزواج وما يتبعها من أصول الزوجية وحدودها، فصيرتها نِدًّا للرجل مساويًا له، وما هي كذلك في الواقع، إن هذه الميزة من شأنها أن تجعل عقلاء الرجال وأذكياءهم يترددون طويلًا قبل الرضا بما يقضي به الزواج من التجاوز عن حقوقهم والتجرُّد عن مزاياهم. فينشأ من ذلك أنه بينما تجِد كل امرأة عائلًا لها بين الأمم التي أساغت تعدُّد الزوجات، نرى من جهة أخرى أن عدد النساء المتزوِّجات في البلاد التي حظرته محدود بالنسبة إلى عدد لا يُحصى من بنات جنسهن يظلن ولا عائل ولا ولي لهن، فيعيش بنات الطبقات العليا منهم عيشة تبتُّل عقيم، ويعاني الأخريات أشد الأعمال وأفدح الأثقال، أو يتلوثن بلوثة العهر، فيقضين حياة بعيدة عن السرور بُعدها عن الشرف. ثم يصبح وجودهن في هذه الحالة أمرًا لازمًا، فيتخذهن المجتمع درعًا يُذاد بها عن عفة أخواتهن اللائي أسعدهن الجَد بالزواج أو بانتظاره. وإن في لندرة وحدها ثمانين ألف بَغِيٍّ! فهل يقال إلا أن هؤلاء النسوة الشقيات، إنما هن ضحايا بشرية على مذبح وحدة الزوجية.

ولقد عَنَيْتُ بكل ما تقدم أن أبيِّن أن هذه المكانة التي أحرزتْها المرأة بيننا مكانة مفتعلة. وأن هذا الاحترام الذي تلقاه من الحضارة الحديثة — إن صَحَّ أن يُدعى احترامًا — إنما هو احترام باطل. لا تُبصر له أثرًا إلا في غرف الأندية وقاعات الرقص وحفلات السباق، فإذا فتشت عنه في المجتمع لم تَجِدْ إلا قسوة على المرأة واستهانة بها. ورأيت كيف تهلك هذه المعبودة غرثى، أو تعيش بثمن حيائها وهنائها باكية وَلْهَى.

وليس الغرض أن لا نحترم المرأة فنهينها أو نرى أن ضَعْفَهَا يستوجب قهرها والحَجْرَ عليها. بل نحن لا ننسى أنها في كل حالاتها إما أُمٌّ لنا أو أخت أو بنت أو زوج أو ذات قربى. فالمروءة بل الضرورة تقضي علينا أن نرأف بها كما نرأف برفيق لا غنى لنا عنه. وإذا كان لا يحق لها أن تكون «سيدة» كما هي اليوم، فليس ذلك بمُرجِعِها أَمَةً كما كانت أمس، ولا شيء فيه من العدوان على حريتها أو اهتضام حقوقها.

قال بيرون: «من صدر المرأة تستروِح أول نسمات حياتك. ومن بين شفتيها تلتقط أحدث ما تُتَمْتِمُ به من حروف كلماتك. وإنها لتمسح أول ما تندى به عينك من العَبَرات. ثم إنها لتتلقَّف آخر ما يُصعده الإنسان من الزفرات. يوم يزهد فيه الرجل ويعرض عنه العُوَّادُ ساعة الأجل.»

ولو أن المرأة شعرت بعلة الشر، لما ثنتها هذه الصغائر عن الدُّءوب على إزالتها. ولكانت أشد من الرجل من تسيء سمعة بنات جنسها. ولنزعت بيدها تلك المرغبات المعكوسة التي تزيد في نفقة الزواج ونفرة الرجل منه. ولرأيناها تضع يدها في يد المظلومين مثلها، لتقلِّم مخالب عدو الرجل وعدوها بل آفة الإنسان والعمران: صاحب رأس المال.

ومتى نال العامل جزاء عمله، وأوتي كل ذي حق حقه، لا تبقى العائلة كلًّا ثقيلًا على عاتق الرجل، وأصبحنا في بحبوحة لا نرى رجلًا يُتلف حياته يومًا بعد يوم ليسكت ضغاء معدته، أو امرأة تبيع نفسها لتمسك جسدها. ورأينا في كل بيت أبًا وأمًّا وصغارًا هم قرة أعينهما، وأملهما في الخلود بعد انطواء ذكرهما، وصلتهما بما يلي من الأجيال.

سبحانك اللهم وبحمدك
نشهد أن لا إله إلا أنت
نستغفرك ونتوب إليك

إلى لقاء مع ملخص لكتاب جديد

www.cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com
+201001490077 - +96890968355